فإنما يعاب وصف الناقة على المحاكاة كما تعاب المحاكاة فى وصف الطيارة من أحدث طراز، وكما تعاب المحاكاة فى وصف القنبلة الذرية، وكل مخترع يأتى بعد القنبلة الذرية، ولو أتى بعدها بعدة قرون

والجبال أقدم من الناقة، فهل يحرم وصفها على الشعراء والكتاب؟ والبحار أقدم من الجبال، فهل يحرم وصفها على الشعراء والكتاب؟ والكواكب والشموس أقدم من الجبال ومن البحار ومن الأرض نفسها، فهل يحرم وصفها على الشعراء والكتاب؟

والعجب أن تخفى هذه الحقيقة البينة على أحد ممن يفقهون الشعر أو لا يفقهونه! فكيف خفيت على أولئك النقاد؟

ما نخالها خفيت عليهم إلا لأنهم حسبوا أن الناقة «أداة مواصلات»، ووصفها الشعراء الأقدمون لأنها أداة مواصلات. فلا يحسن بالشعراء المحدثين أن يتركوا أدوات مواصلاتهم ليصفوا النوق فى الصحراء

والناقة ليست بأداة مواصلات وكفى، إلا إذا كان راكبها جمالا وكفى

ولكنها حيوان وراكبها إنسان، وشأن الحيوان والإنسان باق فى الشعر وفى الإحساس والتعبير عن الإحساس إلى آخر الزمان

وهى بهذه الشارة أحدث من طيارة اليوم وطيارة القرن الثلاثين وما بعد القرن الثلاثين

وكذلك الصحراء وأهل الصحراء، وكذلك كل بقعة من بقاع الأرض وكل مطلع من مطالع السماء

فالشاعر الذى تروعه الصحراء ولا ينظم فيها أعرق فى المحاكاة والتقليد من الشعراء المتقدمين، والأديب الذى يحسب أن الطيارة قد نسخت الناقة والجواد وسائر المطايا الحية لا يحس الحياة ولا الأحياء

وهذه تعقيبات تقال، ولا بد أن تقال وتعاد على تلك الآراء الخاطفة التى تروج بين خطاف الآراء والمذاهب فى هذه الآونة، ولكنها ليست بالتعقيبات الخاطفة كما يرى القراء

عباس محمود العقاد

القيم ...

للأستاذ عبد المنعم خلاف

من ذا الذى يستطيع أن يردّ على الناس إيمانهم «بالقيم» العظيمة التى تعمر الوجود؟ وكانت تعمر القلوب إلى ما قبل هذا العصر المادى، عصر زوال الحدود وكثير من الفروق القديمة بين الأشياء والأمور؟ إنها رسالة المخلصين للحياة لرد الإيمان بالحياة نفسها إلى قلوب أوشكت أن تفقد إحساسها بالحياة ...

إن الكون العظيم قائم على نسب ثابتة، وحدود واضحة بين الجمال والقبح، والصحة والفساد، والنظام والفوضى، وكانت عقول الناس وطباعهم متأثرة بما فى طبيعة الكون من هذه النسب والحدود. لا تحاول طمسها بفلسفتها، ولا تغييرها بقدرتها العلمية؛ لأن الكون المادى ظلّ فى قوالبه القديمة وحدوده الجامدة، لا يستطيع الناس الخلط بينها إلى أن أتى هذا العصر الذى زالت فيه كثير من الحدود والمسافات بين الأشياء والأمكنة فزالت الحدود كذلك بين الخير والشر والجمال والقبح أو خيّل للناس أنها زالت، واتسع مدى الخلط والتأويل، لأن رجال الأخلاق لم يسايروا المنطق العصرى فيجعلوا الحكم النفسىّ على «قيم» الأمور متمشياً مع الفهم العلمى الجديد لها، وهذا كله نتيجة لتخلف الروح تخلفاً بعيداً عن سير الحياة المادية وقد صار الناس لا يتذوقون الأشياء المادية تذوقاً روحياً يضفى عليها ظلال التأويل، ويخلع عليها لونا من حياة القلوب نفسها فيخرجها فى هالة روحية وطاقة نفسية.

خذ أمثلة: الانتقال السريع بالطيران، والاتصال الخاطف باللاسلكى، والقدرة الساحقة بالكهرباء والفولاذ والقوى الذرية .. إنها أعمال واقعية الآن، وكانت إلى ما قبيل الربع الأول من هذا القرن أحلاماً إنسانية خالدة لا تقترب من خيال الناس إلا حيث يدور حديث الآلهة والكائنات القادرة التى تتصل بالآلهة ... والتى لا سدود ولا قيود فى عالمها

والآن بعد أن صارت هذه الأعمال من أعمال الانسان ابن العجز القديم ، صار يفعلها وهو فى ذهول عن « قيمة » مايفعل ، كأنها لم تكن يوماً ما أحلاماً عن عالم الآلهة ! وإنى أعتقد أن أزمات الحياة الآن ناشئة عن هذا الذهول الشنيع الناشىء من إهمال الوعاظ والأخلاقيين والمربين أن يجعلوا هذه المقدرة الانسانية الأخيرة مجالا عظيما من مجالات الوعظ والارشاد لإيقاظ الإنسان أولاً إلى « قيمة » ما يفعله الآن .

ونحن إذا أفلحنا فى أن نجعل الفرد الإنسانى يتذوق هذه الأعمال المادية اليومية التى يفعلها تذوقاً روحياً يجعله يلتفت بالفكر والقلب إلى قيمتها ، نفلح لاشك فى أن نعود به إلى رؤية « القيم » العظيمة الخالدة التى تعمر الوجود ، وكانت تعمر القلوب أيام العجز قبل التسلط المادى الأخير .

وبديهى أن الطفل الناشىء فى هذا العصر بين القطارات والطائرات والبرقيات وعالم الكهرباء ينشأ وهو يرى هذه الأشياء كأنها أشياء طبيعية لا تسترعى انتباهه ، ولا تثير اهتمامه ، لأنه ألفها منذ نشأته ؛ فيمر عليها مخدّراً بالألفة ، ولا يعرف لها قيمة تجعله يلتفت إلى « الإنسانية » التفاتة خاصة يدرك بها تفردها وامتيازها .

ومن هنا ينشأ الذهول عن « القيم » الثابتة التى فى الوجود ؛ كالحق ، والخير ، والجمال ، والمروءة ، والإيمان ، وغير أولئك من معايير الحياة القديمة التى كانت تسجد على أقدامها قلوب الناس أيام العجز .

وما أدرى : لعل هذا الكائن الإنسانى سيأتى عليه عصر يشعر فيه بقدرة فائقة ، ولعله حينئذ يستحيى كما يستحيى الخلائق العقلاء الكاملون أن يعتدوا على « قيم » الحق والخير . لأن حياة الإنسان القادر لا تستقيم ولا تستمر إن لم يقمها على الحق والخير ، والحق والخير هما أساس هذا الوجود الذى نعيش فيه ، ولا يعمى عنهما وعن أخواتهما كائن يخلف الله فى الأرض تلك الخلافة الواسعة

والحياة الفردية والحياة الاجتماعية قد أثر فيهما فقد « القيم » الآن تأثيراً خطيراً هو الذى يجعلهما على قلق واضطراب وتقطع أمر . فلست ترى الفرد الذى يستحيى من نفسه إذا فعل القبيح أو الضار حينما يخلو بتلك النفس اللوامة ؛ لأنه صار يرى الأعمال بدون « قيمها » ، وصارت الفلسفات الأبيقورية والميكيافللية تمهد له وتبرر عمله ، وتسعفه بالأعذار الكاذبة الخادعة ، فلا يسمع لضميره صوتاً ينكر عليه ، لأنه فقد الحساسية بالقيمة الخلقية للأعمال ، وأسعفته الحريات التى صارت شعار العصر ، واختلطت فيها حرية الفكر والرأى بحرية الطباع ، وحرية الطباع معناها الانطلاق وراء البدوات والنزوات ، والبدوات والنزوات هى امتداد حياة الطفولة التى لا تدرك « قيم » الأشياء ، وامتداد طيشها الذى لا يحسب حساب عواقب الأعمال والأقوال .

ولست ترى كذلك الآن الدولة التى تحترم العهد والكلمة والشرف لأن فقد « القيم » قد انتقل إلى المجال الدولى كذلك كنتيجة طبيعية للحياة الفردية الحالية . وهى حالة بالغة الخطورة إن لم يتدارکها المربون والمفكرون بالسعى المتواصل لرد « القيم » إلى مكانها من القلوب والأشياء ، وخلع القداسة على كل حرمات الحياة ، وإحاطة النظم والقوانين والعقائد السامية بهالة من الاحترام والاعتبار ؛ حتى نحد من الفجور الذى يصحب القدرة المادية الفائقة ، وتكفكف من غلواء الغرور الذى تبعثه السيطرة على القوى . ذلك الغرور الذى جعل الولايات المتحدة الأمريكية توشك أن تتنكر لرسالتها الإنسانية ، وتغفل عن تاريخ أبطالها العالميين حين اهتدت إلى سر القنبلة الذرية الذى جعل لها المقام الأول فى التسلح والمقدرة على البطش . فهى الآن تسير فى سياستها العالمية تحت تأثير غرورها بأنها حائزة أسرار ذلك الطارق العنيف الذى جعل اليابان تركع على قدميها إثر ضربتين اثنتين من ذلك الطارق .

فقيمة رسالتها الإنسانية قد أثر فيها زيادة مقدرتها المادية ، وقوتها الحربية ، لأنها خطت خطوة واسعة فى العلم لم يصحبها خطوة موازية فى الروح التى تخلع القيم على الأشياء ، وإن رد القيمة الخلقية للأعمال والأشياء رسالة تحتاج إلى معجزات من الجهاد الموصول والإخلاص الإنسانى والاستمداد من رب الحياة الذى جعل فى الإنسانية مرونة تجعلها تدرك رشد أمرها وتكيف حياتها حسب مصلحتها ، وتخرج من الأهوال وفيها بقايا حياة تسمح بتجديد شملها ، وامتداد وجودها فى كل الظروف والأحوال .

وأعظم أسلحة الجهاد فى هذا السبيل هو التفاؤل والتأميل ، وعدم اليأس من روح الله ؛ مع اليقين الثابت بأنه ما خلقنا إلا للخير ولو بدا فى ثياب الشر لذى أنظارنا القصيرة .

عبد المنعم خلاف